

185849 - هل مكث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة قبل الهجرة عشر سنين أو ثلاث عشرة سنة ؟

السؤال

يخرج أناس علينا بهذا الحديث في محاولة لدحض الحق : الحديث في البخاري الجزء السابع كتاب 72 رقم (787) ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ : " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ وَلَا بِالْقَصِيرِ ، وَلَيْسَ بِالْأَبْيَضِ الْأَمْهَقِ وَلَا بِالْأَدَمِ ، وَلَا بِالْجَعْدِ الْقَطِطِ وَلَا بِالسَّبِطِ ، بَعَثَهُ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ ، وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " وحديث آخر عن ابن عباس: " بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ، يُوحَى إِلَيْهِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْهَجْرَةِ ، فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ "

فما قولكم في الفرق بين الحديتين ؟ ، وكيف يجمع بينهما ؟

الإجابة المفصلة

أولا :

المشهور الذي عليه جمهور أهل العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام بمكة قبل النبوة أربعين سنة ، وأقام بها بعد النبوة ثلاث عشرة سنة ، وأقام بالمدينة بعد الهجرة عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة - صلى الله عليه وسلم .

قال النووي رحمه الله :

" وَاتَّفَقُوا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَامَ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ عَشْرَ سِنِينَ ، وَبِمَكَّةَ قَبْلَ النَّبُوءَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي قَدْرِ إِقَامَتِهِ بِمَكَّةَ بَعْدَ النَّبُوءَةِ ، وَقَبْلَ الْهَجْرَةِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ ، فَيَكُونُ عُمرُهُ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَنَّهُ بُعِثَ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً هُوَ الصَّوَابُ الْمَشْهُورُ الَّذِي أَطْبَقَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ " انتهى .

وهذا هو منطوق ما رواه البخاري (3902) ومسلم (2351) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : " بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إِلَيْهِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْهَجْرَةِ فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ " .

وأما ما رواه البخاري (3547) ومسلم (2347) - أيضا - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، يَصِفُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (كَانَ رُبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ أَزْهَرَ اللَّوْنِ لَيْسَ بِالْأَبْيَضِ الْأَمْهَقِ وَلَا أَدَمَ ، لَيْسَ بِجَعْدٍ قَطِطٍ وَلَا سَبِطٍ رَجُلٍ ، أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ ، فَلَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ ، وَفِيضٌ وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ) .

فللعلماء في الجمع بين الحديتين طرق:

الأولى : إلغاء الكسر في حديث أنس ، وإثباته في حديث ابن عباس ؛ فيكون حديث ابن عباس قد دقق في عد السنوات ، وأما حديث أنس فقد اهتم بذكر العشرة (العقد) ، ولم يعتن بنقل الكسر الزائد عليها ، وهي طريقة للعرب ، حيث كانت أمة أمية .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

" قَوْلُهُ : (فَلَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ) مُفْتَضَى هَذَا أَنَّهُ عَاشَ سِتِّينَ سَنَةً ، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ أَنَسٍ " أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاشَ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ " وَهُوَ مُوَافِقٌ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ الْمَاضِي قَرِيبًا وَبِهِ قَالَ الْجُمْهُورُ ، وَقَالَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ : لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الصَّحِيحُ أَحَدَهُمَا ، وَجَمَعَ غَيْرُهُ بِالْإِعْجَابِ الْكَسْرَ " انتهى من " فتح الباري " (6/570) .

وقال النووي :

" اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ أَصْحَ الرِّوَايَاتِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ ... وَرِوَايَةُ سِتِّينَ إِفْتَصَرَ فِيهَا عَلَى الْعُقُودِ وَتَرَكَ الْكَسْرَ " انتهى من " شرح مسلم " (15/99) .

وقال ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر الاختلاف :

" وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا تَقَدَّمَ عَنْ أَنَسٍ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ كَثِيرًا مَا تَحْدِفُ الْكَسْرَ " انتهى .
" البداية والنهاية " (257 /5) .

والذي يدل عليه أن كل من روى عنه من الصحابة ما يخالف المشهور جاء عنه رواية تضبط العدد ، على حسب القول الآخر المشهور .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

" قَوْلُهُ : (لَبِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ) وَهَذَا ظَاهِرُهُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاشَ سِتِّينَ سَنَةً ، إِذَا انْضَمَّ إِلَى الْمَشْهُورِ أَنَّهُ بُعِثَ عَلَى رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ ، لَكِنْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الرَّاوي أَلغى الْكَسْرَ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي الْوَفَاةِ النَّبَوِيَّةِ ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ عَاشَ سِتِّينَ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ ، جَاءَ عَنْهُ أَنَّهُ عَاشَ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ .
فَالْمُعْتَمَدُ أَنَّهُ عَاشَ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ ، وَمَا يُخَالِفُ ذَلِكَ إِذَا مَا أَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْإِعْجَابِ الْكَسْرَ فِي السِّنِينَ ، وَإِنَّمَا عَلَى جَبْرِ الْكَسْرِ فِي الشُّهُورِ " انتهى من " فتح الباري " (9/4) .

الطريقة الثانية : أن يحمل قول من قال : مكث ثلاث عشرة سنة ، على أنه عد ذلك من أول نزول الوحي ، وأما من قال : مكث عشرا ، فقد عد من بعد فترة الوحي ؛ فإن الوحي فتر زمننا ، ثم حمي وتتابع .

قال ابن كثير رحمه الله :

" قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَدِيٍّ عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدَ عَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ : " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَتْ عَلَيْهِ النَّبُوءَةُ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَفَرَنَ بِنُبُوتِهِ إِسْرَافِيلُ ثَلَاثَ سِنِينَ ، فَكَانَ يُعَلِّمُهُ الْكَلِمَةَ وَالشَّيْءَ ، وَلَمْ يَنْزِلِ الْقُرْآنُ ، فَلَمَّا مَضَتْ ثَلَاثَ سِنِينَ فَرَنَ بِنُبُوتِهِ جِبْرِيلُ فَتَزَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ عَشْرِينَ سَنَةً عَشْرًا بِمَكَّةَ وَعَشْرًا بِالْمَدِينَةِ ، فَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ سَنَةً .
قال ابن كثير : فَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى الشَّعْبِيِّ ، وَهُوَ يَفْتَضِي أَنَّ إِسْرَافِيلَ فَرَنَ مَعَهُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ ثَلَاثَ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُ جِبْرِيلُ " انتهى من " البداية والنهاية " (4 /3) .

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (8/151):

" وَقَدْ جَمَعَ السُّهَيْلِيُّ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ الْمَحْكِيَيْنِ بِوَجْهِ آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّ مَنْ قَالَ : مَكَّتْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ عَدَّ مِنْ أَوَّلِ مَا جَاءَهُ الْمَلَكُ بِالنَّبُوءَةِ ، وَمَنْ قَالَ : مَكَّتْ عَشْرًا أَخَذَ مَا بَعْدَ فِتْرَةِ الْوَحْيِ وَمَجِيءِ الْمَلَكِ بِهَا الْمُدَّتَّر " انتهى .

وقال أيضا في الفتح (9/4):

"أَوْ أَنَّهُ عَلَى رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ قُرْنًا بِهِ مِيكَائِيلُ أَوْ إِسْرَافِيلُ ، فَكَانَ يُلْقِي إِلَيْهِ الْكَلِمَةَ أَوْ الشَّيْءَ مُدَّةَ ثَلَاثِ سِنِينَ ، كَمَا جَاءَ مِنْ وَجْهِ مُرْسَلٍ ،
ثُمَّ قُرْنًا بِهِ جِبْرِيَلُ فَكَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ مُدَّةَ عَشْرِ سِنِينَ بِمَكَّةَ " انتهى .

والله تعالى أعلم .